



Hermeneutik: Jurnal Ilmu Al Qur'an dan Tafsir

ISSN 1907-7246 E-ISSN 2502-6402

Tersedia online di <https://journal.iainkudus.ac.id/index.php/Hermeneutik/index>

DOI: <http://dx.doi.org/10.21043/hermeneutik.v19i1.30561>

المعاملة الحسنة وأثرها في تقوية الروابط الاجتماعية والإنسانية في القرآن الكريم: دراسة في التفسير الموضوعي

Yousouf Ibrahim Dia
Islamic University of Niger
diassy2014@gmail.com

Fauzan Adim
Institut Agama Islam Negeri Kudus, Kudus, Indonesia
fauzanadim@iainkudus.ac.id

الملخص

يأتي هذا البحث من منطلق الشعور بالحاجة الماسة إلى تقوية العلاقات الاجتماعية والإنسانية على أساس من الثقة والاحترام المتبادل، ومراعاة المشاعر والأحاسيس، لما لذلك من دور إيجابي في توثيق عُرى المحبة بين الناس، وفي القدرة على اختراق الكثير من الحواجز النفسية، والوصول بسهولة إلى قلوب الآخرين. وذلك بغرض تجاوز الكثير من الإشكالات والعقبات التي تعترض سبيل السعادة الإنسانية، وتشوّش على العلاقات القائمة بين الناس. ويعالج البحث هذا الموضوع وفق منهج التفسير الموضوعي، الذي كثيراً ما يركّز على معرفة الأهداف القرآنية من خلال التعمق في فهمها وتقوية الروابط الاجتماعية

والإنسانية، بدءاً من الأسرة وانتهاءً بالعلاقات على المستوى الإنساني العام، في كافة جوانب الحياة ومجالاتها مليئاً في الهدايات القرآنية. وقد تناولنا هذا الموضوع مركزين على أمر مهم وهو: تحليل الهدايات القرآنية التي تحت صراحةً على الالتزام بالمعاملة الحسنة مع الآخرين باعتباره خلقاً إسلامياً ربيعاً، منوهةً بدور ذلك في تقوية الروابط والعلاقات الإنسانية، وبالكيفية التي ينبغي أن تكون عليها هذه العلاقات.

الكلمات المفتاحية: المعاملة الحسنة، الروابط الاجتماعية والإنسانية، التفسير الموضوعي

المقدمة

الإنسان مدني بطبعه، ينجح إلى تكوين العلاقات، وبناء الروابط مع بني جنسه. فلا يستطيع أن يعيش بمعزلٍ عن غيره، لأن العزلة حين تكون طوعية، فهي نوعٌ من الانتحار الذاتي. وحين تكون بالقوة والقسر، فتلك عقوبة صارمة تُتخذ ضد نوعٍ معين من المجرمين، أو عملية قتلٍ بطيء حين تُطبّق على إنسانٍ بريء (Lawnd, 1982)

فالإنسان يميل بطبعه إلى مخالطة الناس والتعامل معهم، وهو بحاجة إلى ذلك بحكم المصالح المشتركة، وحاجة كلِّ إنسانٍ لأخيه الإنسان. فلا يمكن له الاستغناء عن الآخرين في تحقيق مصالحه. هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن الكريم وبيّن أبعادها، تنبّه إليها عددٌ من العلماء وعلى رأسهم ابن خلدون في القرن الثامن الهجري (Ibnu Khaldun, 1984, p. 41)، وما تزال الأيام تثبت لنا صدقها، ودقّة وصفها للسلوك الإنساني.

فقد بين لنا القرآن الكريم أن الناس مهما تعددت أجناسهم وألوانهم فإن أباهم جميعاً هو آدم عليه السلام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

فالقرآن يؤكد وحدة أصل الناس وصلة القرى بينهم، باعتبارهم أخوة ينحدرون من أصل واحد. فإنّ هذا التوحد في الأصل والمنشأ، حريٌّ به أن يقود الناس إلى التعاون والتفاهم والالتقاء على الخير والمحبة.

والناظر في صيغ الخطاب القرآني، يجد أنها تؤكد وحدة الأصل الإنساني، فكثيراً ما تتكرر في القرآن صيغ النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، مما يشير إلى أن الله سبحانه كرم هذا الإنسان وفضّله على كثيرٍ من خلقه، مُعلنًا بذلك مبدأ المساواة بين البشر، فلا فضل لجنس على آخر باعتبار اللون والعنصر والنشأة. ويرتقي بهذا الإنسان حين يعلن أنّ أساس الثواب والعقاب يرتكز على النوايا والأعمال لا على الظواهر والأشكال. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (Ibn Hanbal, n.d., p. 539).

ولكن البشريّة حين تُعَيَّبُ عقولها، وتطمس ضمائرهما، تتناسى هذا المبدأ، وتضرب بكل هذه القيم عرض الحائط، فتنتشر العنصرية البغيضة حتى وصل الأمر عند اليهود إلى الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار، وأنّ غيرهم من الناس ليسوا إلا عبيداً خلقهم الله لخدمتهم. وهكذا انتشرت الفكرة العنصرية المقيتة بين كثيرٍ من الشعوب والأمم، فجعلتها تتقاتل على أساسها، ويظلم بعضها بعضاً، متناسيةً وحدة أصلها وصلة القرى فيما بينها، فكان ما كان؛ أن حلت المصائب والفتن والاعتداءات هنا وهناك.

وبعد أن بين لنا القرآن وحدة الأصل الإنساني، فإنه يبين لنا في سياقٍ آخر أنّ هذا الأصل تفرّعت عنه الشعوب والقبائل والأمم، وأنّ الهدف من هذا التنوع بين الناس هو الاتصال والتفاهم والتعارف فيما بينهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

فالغاية التي جعل الله الناس لأجلها شعوباً وقبائل – كما تدل الآية – ليست التناحر والتنازع، ولكنها التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطبائع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات. فالناس أخوة في الإنسانية، لأنهم من طينة واحدة، وتنوعهم إلى شعوب وقبائل ليس أمراً يتغير به حقيقة الإنسانية في الإنسان (Quthb, 1985, p. 3384).

وإذا كان القرآن الكريم قد اهتم ببناء العلاقات الإنسانية على المستوى الإنساني العام، فهو في الوقت نفسه لم يغفل عن أهمية بناء هذه الروابط والعلاقات في مستوياتها الداخلية، بدءاً بالعلاقة القائمة بين الزوجين، مروراً بالأسرة والأقارب والجيران حتى المجتمع المسلم. فعلى مستوى الحياة الزوجية مثلاً، فإن الشعور بالاستقرار الذي يجده كل واحد من الزوجين في الآخر نتيجة اتصاليهما والألفة القائمة بينهما، يُعدّ حقلاً خصباً لتقوية تلك الروابط والعلاقات الإنسانية، وبيئة مهيأة لتغذية الصلات الاجتماعية، وهو ما يصوره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم تتسع دائرة الروابط والعلاقات الأسرية في الإسلام لتشمل العلاقة القائمة على النسب والرضاع والمصاهرة. ويُشير إلى هذا المعنى قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

وإذا كانت الأسرة تُعدُّ الوسط الاجتماعي الأول الذي يُؤمن وسائل المعيشة لأفراده، ويمرّهم على الحياة، ويُشكّلهم ليكونوا أعضاء عاملين في المجتمع، صار من الثابت: أن المجتمع—الذي من أشكاله الأسرة— لا يضمّ أفراداً فحسب، ولكنه يضم أفراداً وما يتولّد عن وجودهم الاجتماعي من صلات وروابط وعلاقات" (Al-Tawmy, 1986, p. 268).

وعلى مستوى العلاقات الإنسانية بين الأفراد على اختلاف أشكالهم يبقى هذا المفهوم حاضراً في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وإذا تحوّلنا إلى نطاق المجتمع المسلم، وجدنا أن القرآن يُعطي أهمية للعلاقات الإنسانية، ويجعلها أساس الاجتماع وأصل العمران. قال تعالى في سورة النساء: الآية 36 فالآية تشير إلى أنّ التأليف بين القلوب نعمة ربانية جديرة بالتنويه، فبذلك "تتقوى الروابط وتنتفي الأحقاد، وتنمحي البغضاء، وتتوارى الخلافات، وما يترتب عليها من غارات وحروب، ويذهب شبح الهلاك إلى غير رجعة. لأنّ التأليف بين القلوب إنما هو اتحاد في المشاعر، وانسجام في الوجدان، وباعث على التضامن في السراء والضراء، فهو إذن وحدة نفسية، أو فكرية، أو

عقلية أو روحية، ينشأ عنها حتماً وحدة اجتماعية لا تنفصم. ومن هنا يمكن القول: إن المجتمع في نظر القرآن تأليفٌ بين القلوب، واتحادٌ في المشاعر، وتشاركٌ في الوجدان" (Al-Tawmy, 1986, p. 271).

ومن هنا نفهم أن التراحم في علم الاجتماع الغربي يقتصر على الصلات العائلية والقبلية فإن تتبع المفهوم في تجلياته الأخلاقية والسلوكية من خلال النصوص الإسلامية التأسيسية السابقة والآية أيضا يثبت أنه يتجاوز الأسرة والقبيلة والعشيرة حتى يشمل كل الناس، فعلى المستوى الإسلامي تتأسس العلاقات كلها على أساس "الأخوة" الإيمانية (إنما المؤمنون إخوة) فهي ليست إخوة القرابة والنسب، وبناء على هذه الأخوة يتأسس كثير من الأخلاق الإسلامية المعروفة كالحب في الله، والبغض في الله، والإيثار، والتعاون، وحقوق الجوار،... ما يعني أن هذه الأخوة ليست مجرد عاطفة يحملها الفرد لأخيه المسلم -على أهميتها- بل توجب عليه حقوقاً تجاهه في مقابلها، و"من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة" (رواه البخاري ومسلم). بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالإعلان عن "العواطف" -وهو شكل من أشكال التراحم- فيقول: "إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه" (رواه أبو داود وابن حبان) و"ألق السلام على من عرفت ومن لم تعرف". وإذا كانت العلاقة داخل الدائرة الإسلامية علاقة "أخوة" فإنها مع غير المسلم في المجتمع الإسلامي تأخذ بعداً إلزامياً وذمة كما في الحديث: "من ظلم معاهداً أو تنقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة" (رواه أبو داود) ونعلم أن هذا المفهوم غاب عن التعامل مع الذمي لأسباب مختلفة معظمها سياسي وليس دينيا. أما على المستوى الإنساني العام فهي مؤطرة بقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: 107) ما يعني أن العلاقة بين أمة الرسالة وأمة الدعوة علاقة رحمة محضة {لا

أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى}، إن تميز المفهوم الإسلامي لا يقتصر على شموليته؛ بل كونه يحتوي دومًا على بعد غيبي متجاوز (ميثافيزيقي) بما يتناقض تمامًا مع الرؤية المادية ويميزه عن الرؤية التقليدية غير الدينية؛ حيث تتداخل العلاقة بين الناس والله، وترتبط دومًا بالواجب الديني، ومبدأ "الثواب" و"العقاب" الأخروي. والمفهوم الإسلامي الممتد للأسرة برباط المصاهرة والنسب والرضاع وما يرتبه من حقوق متداخلة في نسق التشريع الإسلامي يكفل استمرار التراحمية في المجتمع.

الإطار النظري

يُطلق الرابطة الاجتماعية هي العلاقة التي تربط أفراد المجتمع وتشكل منطقته وفلسفته، وهي تختلف في طبيعتها من مجتمع لآخر، وكانت محل اختلاف الفلاسفة والمدارس الفكرية والأنساق الأيدلوجية المختلفة من حيث تكييفها في الواقع وتصورها في المثال المنشود، كما اختلفت تلك الرابطة في الشرائع المختلفة بحسب رسالة كل أمة ومنهج كل كتاب بحسب العصر وطبيعة القوم ومحيطهم الحضاري. وابتداءً، يعني "التراحم" وجود أبعاد غير مادية في العلاقات بين الأفراد، أي أن علاقات البشر ذات طبيعة إنسانية لا تتأسس على المنفعة الشخصية وحدها، ومن ثم فهي ليست علاقات عقلانية مجردة، أو تعاقدية نفعية محضة، بل هي علاقات عضوية مركبة، والتراحم مبدأ ينظم مجموعة من المفاهيم الأخلاقية كالترابط والتعاون والإيثار.

وينطبق ذلك بطبيعة الحال على المؤسسة أو المنظمة التي تجمع الناس في شكلٍ من أشكال التنظيم بغرض الوصول إلى هدف معين مشترك (Muhyiddin, 1976, p. 123). فالعلاقات الإنسانية تتعلق بتفاعل الأفراد في جميع أنواع المجالات، ويُشاهد هذا التفاعل بصفة

عامة في تنظيمات العمل، حيث يرتبط الأفراد بنوع من البناء والنظام الشكلي في سبيل تحقيق هدف معين من خلال الترابط والانسجام والتعاون فيما بينهم (Mursi, n.d., p. 11). ويُنظر إلى العلاقات الإنسانية من وجهة نظر علماء الإدارة على أنها: "دمج الأفراد في موقف العمل الذي يدفعهم إلى العمل سوياً كجماعة منتجة متعاونة، مع ضمان الحصول على الإشباع الاقتصادي والنفسي والاجتماعي. وهدفها هو جعل الأفراد منتجين متعاونين، من خلال الميول المشتركة، والحصول على الإشباع عن طريق تنمية علاقاتهم وتوظيفها. وعندما يتم تحقيق هذه الأهداف تبرز الجهود الموفقة للجماعة، حيث يعمل الأفراد سوياً بطريقة منتجة مشبعة" (ahmad, 1979, p. 196).

ويرى المفكر المصري: عبد الوهاب المسيري أن مفهومي: ("التعاقد" و"التراحم") معيار للتمييز بين المجتمعات الحداثية والمجتمعات التي تتسم بدرجة عالية من الإيمانية والإنسانية، وأن التمييز بينهما الذي صاغه المفكر الألماني تونيز ثم طوره ماكس فيبر تمييز دال في فهم المنطق الاجتماعي للأمة الإسلامية والأمم الأخرى - خاصة الأفريقية والشرق آسيوية - التي لا تعتبر التعاقدية أساس الجماعة وتنزل الروابط الأسرية والقبيلة والدين منزلة مهمة، بغض النظر عن نمط الإنتاج الاقتصادي الذي تتبناه. وقد اهتمت كتابات ما بعد الحداثة، والنقد الماركسي الإنساني للحداثة (مدرسة فرانكفورت) بهذا التمييز واعتبرت الفردانية وغلبة العقل النفعي في ظل الحداثة الصناعية انتقاصاً من الخصائص الإنسانية للفرد ومادية غير مقبولة.

وبعبارة أكثر وضوحاً فإنّ "الروابط الإنسانية" تُطلق على تلك العلاقة القائمة بين الناس أفراداً وجماعات، سواء كان ذلك على مستوى الأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، والعلاقة بين الآباء والأبناء، أو على مستوى المجتمع على اتساعه، أو على مستوى الاتصال الإنساني والتفاهم البشري بشكل عام، في كافة جوانب الحياة ومجالاتها.

والحديث عن الروابط الاجتماعية والإنسانية في هذا البحث، هو حديثٌ عن هذه العلاقة الإنسانية، من ناحية تأثرها إيجاباً وسلباً بأسلوب المعاملة، والطريقة التي تتم بها، وتوجيهات الآيات القرآنية في هذا السياق.

أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم

أولاً: مفهوم الأدب وفضله

الأدب لغة هو الظرف وحسن التناول. يُقال: تأدّب الغلام في كلامه مع أبيه؛ أي تحاشى الكلام الخارج عن حدود الأدب. وسمّي الأدب أدباً لأنه يُوجّه الناس إلى المحامد وينهاهم عن القبائح. وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للطعام الذي يُدعى إليه الناس مدعاة ومأذبة (Al-Fairuzabadi, 1983, p. 36; Ibn Mandzur, n.d., p. 206). ومصطلح الأدب كما يرى ابن القيم يدل على معنى الاجتماع؛ فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد. ومنه المأذبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس (Ibn al-Qayyim, 1973, p. 375). وعَرّف الجرجاني الأدب بأنه "عبارة عن معرفة ما يُحتز به عن جميع أنواع الخطأ" (Al-Jurjani, 1405, p. 29). ووَرَدَ عن عبد الله بن المبارك أنه عَرّف الأدب بأنه معرفة النفس ورعونتها، وتجنب تلك الرعونة (Al-Syirbashi, 1979, p. 157).

ولا بد هنا من التمييز بين الأدب بمفهومه العام، وعلم الأدب بمفهومه الخاص. فعلم الأدب هو "علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقفه، وتحسين ألفاظه، وصيانه عن الأخطاء والخلل" (Ibn al-Qayyim, 1973, p. 376). فهذا المفهوم كما يقول ابن القيم هو "شعبة من الأدب العام" (Ibn al-Qayyim, 1973, p. 376). والأدب الذي يعنينا في هذا البحث هو الأدب بمفهومه العام والذي أشرنا إليه أولاً، وهو المختص بالجانب الخُلقي والسلوكي لا بدلالات اللسان ودلالات الألفاظ في حالاتها الإفرادية والتركيبية.

وبالنظر إلى أهمية الأدب وفضله في الإسلام، فإننا نجد أن الإسلام قد وضع قواعد في التربية والتهذيب، ومبادئ للقيم والسلوك والأخلاق، ليقم عليها مجتمعاً نقيّ السريّة، عفّ اللسان، ذا أدبٍ وذوقٍ رفيع. فقد عُني الإسلام بموضوع الأدب بشكل عام. فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما نَحَلَ والدٌ ولده أفضل من أدبٍ حَسَن» (Al-Baghdadi, 1403, p. 131). وأنه قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» (Al-Ibn Majah, n.d., p. 1211; Syihab Al-Qadha'i, 1986, p. 389).

ويشير عبد الله بن المبارك إلى حاجتنا إلى الأدب بقوله: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم (Ibn al-Qayyim, 1973, p. 376). ويقول الإمام القراني في كتابه «الفروق» وهو يتحدث عن موقع الأدب من العمل وبيان أنه مُقدّم في الرتبة عليه: "واعلم أنّ قليل الأدب خيرٌ من كثير من العمل، ولذلك هلك إبليس وضاع أكثر عمله بقلّة أدبه. وقال الرجل الصالح لابنه: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً؛ أي ليكن استكثارك من الأدب أكثر من استكثارك من العمل؛ لكثرة جدواه ونفاسة معناه" (Al-Qurafi, n.d., p. 272).

وقيل في بيان فضل الأدب: أربعةٌ يسود بها العبد: العلم، والأدب، والفقه، والأمانة (Ibn Munqidz, 1991, p. 229). وقيل: من كَثُرَ أدبه شُرِفَ وإن كان ضيعاً، وسادَ وإن كان غريباً، وكثُرَت الحاجة إليه وإن كان فقيراً (Ibn Munqidz, 1991, p. 233).

وإن كان الأدب حُلُقاً عاماً يتناول كثيراً من التصرفات والسلوكيات، إلا أنه أفضل ما يكون في الكلام. رُوي في ذلك عن عبد الملك بن مروان أنه قال: "ما الناسُ إلى شيءٍ من الأدب أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاودون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهاذون الحكمة، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها، ويجمعون ما تفرّق منها، فإنّ الكلام قاضٍ

يحكم بين الخصوم، وضياءٌ يجلو الظلم. حاجة الناس إلى مواده حاجتهم إلى مواد الأغذية" (Ibn Munqidz, 1991, p. 228).

ثانياً: التصور القرآني لأدب التعامل مع الآخرين

الأصل في دين الإسلام أنه دينٌ تجمع ألفة، لا دينٌ عزلة وفراغ من تكاليف الحياة، ولم يأت القرآن ليدعو المسلمين إلى الانقطاع في دير، أو العبادة في صومعة، بعيداً عن مشاكل الحياة ومتطلباتها. بل إن نزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليم هذا الدين. فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الفضل لمن خالط الآخرين وتعرف عليهم ولم يتوقع على نفسه، وذلك في قوله: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» (Al-Ghazali, 1997, p. 172; Al-Baihaqi, 1994, p. 89).

وما المرء إلا بإخوانه كما يُقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

والحقيقة أن أدب التعامل مع الآخرين له مفهوم شامل، يتسع اتساع العلاقات الإنسانية بين بني البشر (Al-Absyahi, 1952, p. 119). والروابط التي تجمع بين الناس كثيرة، فمن رابطة الدم، إلى رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصداقة والصحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجارية والاقتصادية، ورابطة العقيدة التي تُعد من أقوى الروابط وأمتنها. ولكن قوة رابطة العقيدة، لا تعني أن أدب التعامل مع الآخرين لا يدور إلا في نطاقها، ولا يشمل التعامل مع أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين، بل إن أدب التعامل يتسع ليشمل الإنسانية كلها. ولا بد لنا في هذا السياق من التفريق بين أدب التعامل مع الآخرين وبين الولاء لهم. فإن الولاء هو المحبة والنصرة (Ibn 'Abd al-Wahhab, n.d). وهذه لا تكون إلا بين المسلمين. ولكن التبرؤ

من أعداء الله لا يعني الإساءة في معاملتهم، أو أكل حقوقهم، أو سبهم والفحش معهم في القول، أو عدم ملاطفتهم. فالولاء "هو سلوك الباطن، والمحبة القلبية، وما يترتب على ذلك من نصرة وإعانة. أما التعامل الحسن؛ فهو سلوك الجوارح والعلاقة الظاهرية. والأول قد حُصر على المسلمين، أما الثاني فهو مع المسلمين ومع غيرهم" (Al-Hammady, 2000, p. 32). ولعلّ ما ورد في سورة الممتحنة، هو من أوضح الآيات التي تميز بين الولاء وبين البرّ وحُسن التعامل، يقول تعالى في سورة الممتحنة: الآيتان (8، 9).

فقضية التعامل مع الآخرين هي قضية بالغة الأهمية والخطورة، وقد جعل الإسلام الالتزام بالدين في قسمٍ كبيرٍ منه، متوقفٌ على الأدب وحسن المعاملة. ومن منطلق هذه الأهمية، جاء القرآن الكريم ليضع لنا المناهج القويمة والأسس السليمة للتعامل مع الآخرين باعتباره موضوعاً أساسياً من موضوعات هذا الدين. فقد أصّل القرآن الكريم لأدب التعامل مع الآخرين وأقامه على مجموعة من القواعد والفنون، التي نضمن من خلالها نتائج إيجابية وحسنة في العلاقات الإنسانية، وهذه القواعد والفنون كثيرة ومتنوعة، وليس من موضوعنا الحديث فيها، غير أنّ هناك قاعدة قرآنية تُعدُّ أصلاً تتفرع عنه كل قواعد التعامل مع الآخرين، هذه القاعدة هي «حُسْنُ الخُلُق»، إذ لا نجاح ولا توفيق في التعامل مع الآخرين دون هذا الأصل المتين. ومن هنا فقد مدح الله تعالى نبيه بهذه الصفة، فقال عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ووصفته عائشة رضي الله عنها بأنه «كان خلقه القرآن».

فحُسْنُ الخُلُق أصْلٌ في أدب التعامل، وتتفرع عنه سلوكيات كثيرة. ويتحدث الإمام الغزالي عن أهم هذه السلوكيات المترتبة على حُسْن الخُلُق، فيقول بأن من صفات الشخص الذي يوصف بحسن الخُلُق أنه "يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الإصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرّاً وصولاً، وقوراً صبوراً، شكوراً رضيّاً، حليماً رقيقاً، عفيفاً شفيقاً، لا لَعَناً ولا سَبّاً، ولا نَمّاً ولا مغتاباً، ولا عجبلاً، ولا

حقوداً، ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حُسن الخلق" (A. H. Al-Ghazali, 1995, p. 89).

فمنهج القرآن في المعاملة واضح وجلي ومرن فمثلاً : في الوقت الذي يأمر بكتابة الدين وتوثيقه يرعّب في المسامحة به مع المعسر، وفي الوقت الذي يطلب فيه السماحة في المعاملات كلها يأمر بإتقان العمل، وفي الوقت الذي يأمر فيه بجبر الخواطر يحذر من توسيد الأمر إلى غير أهله وهكذا... بل إنه في الحياة الخاصة -كالزواج مثلاً- يبالغ في التراحم والبعد عن التعاقد {وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً} (النساء: 19)، و"لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر" (رواه مسلم).

ويُنبِّه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أهمية حُسن الخُلُق في التعامل مع الآخرين، فيقول: «إِنَّكُمْ لَا تَسْعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسْعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ». وفي هذا الحديث الشريف عِظَةٌ نافعة وحِكمة بالغة، فإنَّ الإنسان مهما بذل من المال لا يحظى برضى الناس، ثم إنَّ المال ليس في مقدور كلِّ إنسان، ولكن في مقدور كلِّ واحدٍ أن يُحسن خُلُقَه، ويلين جانبه، ويخفض جناحه، ويبسط وجهه. وهذا الأدب في التعامل مع الآخرين، خيرٌ مُعينٍ على تذليل صعوبات الحياة، وتخفيف آلامها، لأنه يبعث السرور في النفس، وبه تطيب المعاشرة وتصفو المعيشة.

كما يشير القرآن الكريم إلى مبدأ مهم في التعامل مع الآخرين. فالدين في المنظور القرآني ليس صلاةً وصياماً في جهة، وجلافةً وجفاءً في التعامل مع الناس في الجهة الأخرى، بل هو وَحْدَةٌ متكاملة يرتبط فيها الجانب الإيماني بالجانب العملي في الحياة. قال تعالى في سورة البقرة: الآية 177. فهذه الآية تشير إلى ملامح الشخصية الإسلامية التي تركز على جانبين اثنين: جانب الفكر والإيمان وأداء العبادات، وجانب الممارسة في السلوك الذاتي وفي العلاقة

مع الناس ومع المواقف الصعبة في الحياة. نلمح ذلك من خلال تحديد طبيعة البرّ الذي يعني التوسّع في الخير والإحسان، كما يذكر أهل اللغة (Al-Ashfihani, n.d., p. 40)، لأنه يمثّل سرّ الشخصية لدى المؤمن في آفاق تصوّر وميدان التعامل. فبالإيمان والعمل تتكامل الشخصية وتنطلق.

وبصورة عامة فإن الأسلوب الإسلامي في التعامل مع الناس هو الأسلوب الأمثل والأحسن، وهو الأسلوب الذي يعود بانعكاسات إيجابية على العلاقات الإنسانية. ولا يزال المسلم الحق ملتزم بدينه، المحافظ على أخلاقه الإسلامية، شامّةً بين الناس وقدوة حسنة لهم، يحبه كلُّ من يخالطه، ويُسرُّ له كل من يجالسّه. تخلّقه بآداب الإسلام ومكارم الأخلاق جعل منه نموذجاً حياً للشخصية الاجتماعية الرّاقية المهيبة النقية.

وما انتشر الإسلام في جميع أنحاء المعمورة إلا دليلٌ واضحٌ على انعكاس الأخلاق الإسلامية على العلاقات في المجتمعات الإنسانية، حتى إنّ الذين دخلوا في هذا الدين تأثراً بهذه الأخلاق، يتجاوز عددهم أضعاف من دخلوه عن طريق السيف. بل إنّ السيف - في كثير من الأحيان - لم يكن إلا لإزالة العقبات التي تحول بين الناس والالتقاء مع صفاء الإسلام وسماحة أخلاقه، وما أن تضع الحرب أوزارها، ويتعامل المسلمون مع أعدائهم، وتنساب العلاقات فيما بينهم، حتى تبهرهم عظمة هذا الدين، وسموّ أخلاقه، فيتحوّلوا من أعداء محاربين للإسلام وأهله، إلى مناصرين للحق مدافعين عنه.

أدب المعاملة ودوره في الحفاظ على وحدة الصف وحلّ المشكلات الاجتماعية

يمثّل أدب المعاملة وسيلة مهمة من وسائل توحيد الصف الإسلامي، لما يحققه من تآلف بين القلوب، وتناصر بين النفوس. ولما يتمخض عنه من حلّ كثيرٍ من المشكلات الاجتماعية.

أولاً: أدب المعاملة وأثره على وحدة الصف ولمّ الشمل

يُوجّه القرآن الكريم المؤمنين إلى ضرورة الالتزام بأدب المعاملة في بينهم، لأن الشيطان قد يستغل كلّ كلمة طائشة. فبسبب كلمة قد يتفرّق الشمل؛ فتحلّ العداوة والبغضاء، وبسبب كلمة قد تتآلف قلوب؛ فتحلّ المودة وتزول الأحقاد والكراهية. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. قال القرطبي: "أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، وإطراح نزغات الشيطان، وقد قال صلى الله عليه وسلم «وكونوا عباد الله إخواناً»" (Al-Qurthubi, 1372, p. 277).

فالله يأمرنا بأن نتحكّم بأقوالنا وأفعالنا لتكون مسدّدة صائبة، فلا نتفوّه من القول إلا بأحسنه، لنسدّ بذلك على الشيطان مسالكه، ونمنعه من التغلغل بين صفوفنا كمؤمنين متحابين متوادّين، كي لا يفسد علينا سعادتنا وطمانينتنا "فالشيطان ينزع بين الأخوة بالكلمة الخشنة تفلّت، وبالردّ السيئ يتلوها، فإذا جوّ الودّ والمحبة والوفاق مشوبّ بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تُنذّي جفافها، وتجمعها على الودّ الكريم" (Quthb, 1985, p. 2234).

والعداوة بين الشيطان والإنسان مستحكمة، لأنه لا يريد صلاح الإنسان أصلاً، وقد أخذ على نفسه العهد بإضلال الإنسان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولذا فلا بد أن نكون على وعي تام بما يحدث بنا من أخطار نسجتها المكائد الشيطانية، بغرض الحد من التواصل البناء وتفتيت العلاقات الإنسانية. ولا بد من العمل بشكل حثيث من أجل وحدة الصف ولم الشمل.

"ولكي تصل البشرية إلى وحدتها فتكون أمة واحدة، وإلى تواصلها فتكون أسرة واحدة، أمر الله جلّت حكمته بحسن الأدب ولين القول وجميل الفعال، لأنه جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب. وما علينا في سبيل الفوز بمحبته إلا أن نسعى إلى ذلك بالتجمل بأخلاق القرآن، والتحلي بشمائل المصطفى العدنان صلى الله عليه وسلم، لأن أعلى مستوى من مستويات الكمال هو أن نتخلق بأخلاق القرآن التي جسدها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً حتى صار حُلُّهُ القرآن" (Aqbiq, n.d., p. 103).

وبيّن لنا القرآن الكريم أنّ أدب الرسول صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الآخرين، كان سبباً في تجميع القلوب وتوحيد الصفوف. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. "والفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾؛ أي لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم، لا نفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك ولأن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم" (Ibn Katsir., 1401, p. 421).

فالآية الكريمة تشير إلى الرحمة التي ألقاها الله في قلب رسوله، وتثني على أخلاقه السامية وقيادته الحكيمة، فعلى الرغم من عدم اتفاق أصحابه معه في بعض المواقف، إلا أنه وسّعهم

بُحُلِّقَهُ الكَرِيم، وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالقسوة والشدة بل باللين والرحمة، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته.

فليس من العسير إيراد المعارف ولا بذل النصيحة، ولكن العسير تَخْيِرُ أسلوب العرض لضمان النتائج، فكم من نفوسٍ أعرضت عن كلمة الحق، ولم يكن إعراضها ناشئاً عن طعنٍ في صحتها أو شكٍ في وضوحها؛ بل إنّ السبب الذي أدّى إلى نفورها، هو الأسلوب الذي غلب عليه الجمود والفظاظة، ونأى عن الرفق واللين، فنفرت منه القلوب، وأعرضت عنه. فالحقيقة واحدة، يَبْدُ أنها تقع على لسان من يسيء التعبير عنها فينقّر الناس منها، أو تقع على لسان واعظ حسن الموعظة، فيجمع القلوب حولها. وفي ذلك يقول الشاعر (Ibn Khalkan, 1968, p. 33):

في زُخرف القولِ تزيينٌ لباطلهِ والحقُّ قد يَعتريه سوءُ تعبيرِ
تقولُ هذا مجاجُ النحلِ تَمُدُّهُ وإنْ ذَمَّتْ تَقُلْ قِيءُ الزناييرِ
مدحاً وذمّاً وما جاوزتَ وصفَهُما حُسْنُ البيانِ يُري الظلماءَ كالنورِ
فالمطلوب من الداعية أن يكون رحيماً بعباد الله، لأنّ التراحم بين الناس يشدّ بعضهم إلى بعض، ويخلق بينهم جَوْاً من الألفة والترايط، ويزرع في أعماقهم غيرة على المصلحة العامة، مما يجعلهم أهلاً للمشورة وإبداء الرأي في سياسة الأمة بهدف الوصول إلى الحل السديد. ويشير القرآن الكريم إلى قاعدة مهمة في أدب المعاملة، تتمثّل في عدم الرد على السيئة بمثله، مبيناً أنّ ذلك يؤدي إلى مزيد من توحيد الصف، لأنّه يقلب العداوة والبغضاء إلى ألفة ومحبة.

"وَتَصَدَّقْ هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات. وينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء؛ على كلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجهٍ

هائج، غاضبٍ متبجحٍ مفلوت الزمام. ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً، وخلع حيائه نهائياً، وأفلت زمامه، وأخذته العزة بالإثم" (Quthb, 1985, p. 3121).

ثانياً: أدب المعاملة وأثره في حلّ المشكلات الاجتماعية

إنّ أدب التعامل مع الآخرين وعدم الردّ على السفاهة بمثلها، خلُقَ كريم يُصقّي القلوب، ويزيل منها الضغائن والأحقاد، ويجعلنا نتجاوز الكثير من المشكلات الاجتماعية. فمما لا شك فيه أنّ القول السيئ وما يتبعه من ردود أفعال قد يُحدث مشاكل ومضاعفات، يكون لها أسوأ النتائج. وهنا يأتي دور مقابلة الإساءة بالإحسان في الإصلاح النفسي والاجتماعي لنفوس الناس وطبائعهم. وهذا المنهج في الإصلاح الاجتماعي واضح في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

رُوي أنه لما نزلت هذه الآية، سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عنها، فقال: لا أعلم حتى أسأل، ثم رجع فقال: إنّ ربك يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك (Al-Shan'ani, 1410, p. 246) Al-Thabari, n.d., p. 155).

والأمر بالمعروف الذي تتحدث عنه الآية الكريمة، قضية مهمة في إصلاح المجتمع، وفي تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين أفرادهِ في أحسن صورة. "ومما لا شك فيه أن إصلاح الفرد هو الخطوة الأولى في إصلاح المجتمع، لأن الإنسان خلية في جسد المجتمع البشري، إذا فسدت أضرت به وآلمته، وإذا صلحت حملت له الأمل بالصحة والعافية. ولا يكفي أن يُصلح الإنسان نفسه، لأنه مسؤول أيضاً عن إصلاح أسرته الصغيرة، وكذلك عن الأسرة الإنسانية التي يعيش بين ظهرانيها" (Aqbiq, n.d., p. 96). وفي معنى هذه الآية قيل شعراً (Al-Qirwani, n.d., p. 427):

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ كَمَا	أُمرتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لَكَلَّ الْأَنَامِ	فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لَيْنِ

ويبين الإمام الشافعي بكلماتٍ بليغة منظومة، كيف أنَّ العفو وعدم الردّ على السيئة بمثلها، يجنب الإنسان الكثير من العداوات، الأمر الذي يسهم في حلّ الكثير من المشكلات الاجتماعية. يقول :

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقَدْ عَلَى أَحَدٍ	أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيَيْ عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ	لَأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبَشَرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ	كَأَنَّهُ قَدْ حَشَى قَلْبِي مَحَبَّاتِ
وَلَسْتُ أَسْلَمُ مِنْ خِلِّ يُخَالِطُنِي	فَكَيْفَ أَسْلَمُ مِنْ أَهْلِ الْعَدَاوَاتِ
النَّاسُ دَاءٌ وَدَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمْ	وَفِي اعْتِرَافِهِمْ قَطْعُ الْمَوَدَّاتِ

وعلى مستوى الأسرة يُبين لنا القرآن الكريم، أنَّ الوعظ بالكلمة هو الخطوة الأولى في رَأْب الصدع القائم بين الزوجين في حال النشوز. ويكون وعظ الزوجة بتذكيرها بما أوجب الله عليها من حُسن الصحبة وجمال العشرة، بحيث يكون الزوج في وعظه كَيِّسًا لَبَقًا طويل الأناة، يعظ مرّة ومرّة ومِرَات، على فترات متقاربة أو متباعدة حسب الظروف، فإن ذلك جدير بأن يُلين من حدّتها ويردّها إلى سبيل الرشاد.

فإن الكلمة الطيبة أغلى عند الزوجة في كثير من الأحيان من الحلّي الثمين، والثوب الفاخر الجديد، لأن العاطفة التي تبثها هذه الكلمة هي غذاء الروح. فكما أنه لا حياة للبدن بلا طعام، فكذلك لا حياة للروح بلا كلامٍ حلو لطيف. وإن السعادة كلها ربما كانت في كلمة فيها مجاملة ومؤانسة يقولها أحد الزوجين لصاحبه، بل إنَّ إن الزوجين من أشد الناس حاجة إلى

سماع كل واحد منهما الكلمة الطيبة من صاحبه. وإن أدب الكلمة أساس متين تُبنى عليه علاقات الحب والمودة والرحمة والإنتاج والتربية.

وكثيرات هنّ الزوجات اللواتي يستجبن لهذا الأسلوب المهذب الرقيق، ولكن هناك صنف آخر لا يُجدي معهن ذلك، فيتمادين في نشوزهن، فهؤلاء يُتبع معهن الوسائل الأخرى التي ذكرتها الآية: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾. ولكن بفهم ووعي وعدم تجاوز للحد. ولكن لماذا ينتظر الرجل زوجته حتى تنشر ليقول لها كلمة طيبة؟ ولماذا يهمل كل من الزوجين هذه الناحية إهمالاً شديداً، بحجة زوال الكلفة وقيام الانسجام الكامل بينهما؟ أليس الأجدر أن يكون أدب المعاملة هو أساس العلاقة القائمة بين الزوجين؟

وفي سبيل حلّ المشكلات الزوجية، فإنّ القرآن الكريم يوجّه نحو العشرة بالمعروف حتى مع الكراهة. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وتأكيداً لهذا التوجيه الكريم، وإيضاحاً لمعانيه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يفرك مؤمن من مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها آخر". أي لا يبغضها بغضاً شديداً يدفعه إلى فراقها، بل يتغاضى عن مساوئها، لما فيها من محاسن أخرى. والناظر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه يجد أنها كانت مثال الملاطفة والمؤانسة. فقد كان يؤانسهن ويمازحهن ويعمر نفوسهن بالكلمة الحلوة، والنظرة الحانية، والتصرف الودود، ويحتمل منهن أخطاءهن.

فكان على سبيل المثال يتحبّب إلى عائشة رضي الله عنها بترقيق اسمها فيناديها بقوله: «يا عائش» و «يا حميراء» و «يا شقيراء» (Al-Nasa`i, 1991, p. 307).

كما كان صلى الله عليه وسلم يحترم مشاعر زوجاته. فقد رُوي أنه صلى الله عليه وسلم قال لصفية: «لم يزل أبوك من أشدّ يهود لي عداوة حتى قتله الله». فقالت: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. فلم يُسمع النبي بعد ذلك ذاكراً أباهما بحرفٍ مما تكره (Ibn Sa'd, n.d., p. 132). وذلك حفاظاً على مشاعرها واحتراماً لأحاسيسها.

ولأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بشر وكذلك زوجاته، فإنّ بيت النبوة كانت تعترضه بعض الخلافات والمناوشات بين الحين والحين. إلا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان القدوة والأسوة الحسنة في كيفية التعامل مع هذه المشاكل.

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير، قال: جاء أبو بكر يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له فدخل، فقال: يا ابنة أمّ رومان _وتناولها_ أترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: فحال النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينها. قال: فلما خرج أبو بكر، جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لها يترضاها: ألا ترين أيّ قد حِلْتُ بين الرجل وبينك. قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها. قال: فأذن له فدخل، فقال له أبو بكر: يا رسول الله، أشركاني في سلمكما كما أشركتmani في حربكما.

ولا يخفى ما لهذا المنهج الإسلامي في الحث على أدب المعاملة بين الزوجين، من دورٍ فاعلٍ في حل الكثير من المشكلات الزوجية، فبهذا النظام الرباني الدقيق يصبح الخلاف بين الزوجين محصوراً، والتعاون بينهما أمراً غالباً، لا في حالة توافر المودة والرحمة بينهما فحسب، بل وفي حالة ضعف هذه المودة وفتور المحبة والرحمة أيضاً. وإذا كان الحديث هنا منصباً على دور أدب المعاملة في حلّ الخلافات الزوجية، فإنّ ذلك لا يعدو أن يكون مجرد مثال، إذ إنّ لأدب

المعاملة الدور عينه في تجاوز الكثير من المشكلات الاجتماعية بين كافة أطراف المجتمع الإنساني لا بين الزوجين فحسب.

توجيهات قرآنية في الحث على أدب المعاملة

كثيرة هي التوجيهات القرآنية التي تحث على الالتزام بالأدب في التعامل مع الآخرين، وسنحاول فيما يلي أن نذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. النهي عن فضول الكلام والخوض في الباطل

حثَّ القرآن الكريم على الابتعاد عن فضول الكلام وعدم الخوض في الباطل، والالتزام بهذا التوجيه القرآني مِنْ شأنه أَنْ يَصُبَّ في بناء مجتمعٍ متماسكٍ يبتعد فيه الناس عن الثثرة والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه. قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فهذه الآية القرآنية تُوجِّه المؤمنين إلى أَنْ يكون كلامهم هادفاً، فإنَّ من شأن المسلم الواعي ألا يخوض فيما لا يعنيه، وألا يُكثر من الكلام المباح غير الهادف والذي لا خير فيه، فإنَّ الوقت أثمن من إضاعته في فضول الكلام وهذِّره.

وكثرة الكلام تؤدي إلى قسوة القلب، فقد وَرَدَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا تَكثُرُوا الكلام بغير ذكر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي». ولا شكَّ أنَّ قسوة القلب مع الله تؤدي إلى قسوته مع الناس، مما يُلقي بظلاله السيئة على الاتصال بالآخرين، وعلى العلاقات الإنسانية بشكل عام.

2. النهي عن السب والفحش في القول

للسب واللعن والفحش في القول أضرار كثيرة، ففيها إيذاء للمسبوب، وإيغار للصدور، وقطع للعلاقات والموادات، وزرع لبذور الفتنة والشقاق، وذلك لما تجلبه من العداوة والبغضاء، وتجرحه من المنازعات والمشاحنات التي قد تنتهي بأوخم العواقب وأسوأ النتائج، فتتفكك غرى المحبة، وتنقطع روابط الألفة، ويحل الفساد محل الصلاح، والخصام محل الوثام، فتسوء الأحوال وتضطرب الأعمال.

ونتيجة لهذه الآثار السيئة التي يتركها السباب وفحش القول على العلاقات الإنسانية، جاء التوجيه القرآني ليحث على تجنب النطق بالألفاظ البذيئة، والكلمات المبتذلة. قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾. وفي آية أخرى نص القرآن الكريم على أن إيذاء المؤمنين بالقول السيئ دون وجه حق، يترتب عليه إثم عظيم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

3. الحث على الصمت وحسن الاستماع

الصمت وحسن الاستماع مهارة لا بد من إتقانها، لما لذلك من أهمية كبرى في بناء العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات، وهي وسيلة مجدية في إيجاد الفهم المتبادل بين الناس، ومساعدتهم في حل مشكلاتهم، والتخفيف من آلامهم، وما يحسون به من ضيق وحزن. وقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة حسن الاستماع. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به (Al-Qurthubi, 1372, p. 244).

جاء في كتاب «فن التفاوض» لوليام أوري ما نصه: "إنَّ الإنصات عظيم الفائدة، فهو يفتح لك نافذة لتري ما يدور في عقل الطرف الآخر، كما يجعل الطرف الآخر على استعداد

للإنصات إليك. فلو أنَّ الطرف الآخر كان غاضباً أو قلقاً، فلماذا لا تحاول أن تستمع إلى شكواه. لا تقاطعه حتى لو شعرت أنه مخطئ، أو أنه يهينك. ويمكنك أن تشعره بإصغائك إليه عن طريق تركيز نظرك عليه، أو هز رأسك من آنٍ لآخر، أو ترديد عبارات مثل: «نعم، نعم» أو «أنا أفهم ما تقصده» وعندما ينتهي من حديثه، اسأله بهدوء إن كان لديه شيء آخر يريد أن يضيفه، وشجعه على أن يُفصي إليك بكل ما يضايقه، بأن تقول له مثلاً: «من فضلك استمر في حديثك» أو «ماذا حدث بعد ذلك؟». وبمجرد أن تُنصت لما يريد الطرف الآخر أن يقوله، فغالباً ما سيؤدي ذلك إلى تهدئته، ليصبح أكثر تعقلاً وأكثر استجابة بشأن حل المشكلة، واستصدار القرار المطلوب، فليس من قبيل الصدفة أن أفضل المحاورين غالباً ما يستمعون أكثر مما يتكلمون" (Ori, 1994, p. 67).

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ براعة الإنصات تكون بالأذن، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه، وعدم الانشغال بتحضير الرد، وعدم الاستعجال بالرد قبل إتمام الفهم. فإنَّ كثيراً من الناس يخفقون في ترك أثر طيب في نفوس من يقابلونهم لأول مرة، لأنهم لا يُصغون إليهم باهتمام، إنهم يستمعون بنصف أذن، ويحصرهم همهم فيما سيقولونه لمستمعهم، فإذا تكلم المستمع لم يلقوا له بالاً، علماً بأنَّ أكثر الناس يُفضّلون المنصت الجيد على المتكلم الجيد (Dimas, 1999, p. 35).

يقول دايل كارنيغي Dale Carnegie في كتابه القيم «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس»: "إذا كنت تريد أن ينفضَّ الناسُ من حولك، ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك، فهناك الوصفة: لا تُعطِ أحداً فرصة الحديث .. تكلم بغير انقطاع .. وإذا حطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدث فلا تنتظر حتى يُتم حديثه، فهو ليس ذكياً مثلك، فلماذا تضيع وقتك في

الاستماع إلى حديثه السخيف؟ اقتحم عليه الحديث، واعترض في منتصف كلامه" (Dale Cardegie, n.d., p. 41).

ومن حُسن الاستماع أنه إذا كان السامع عالماً بكلام المتحدث، فإنه ليس من الأدب مقاطعته ومداخلته فيه، بغرض الإظهار للآخرين معرفة هذا الحديث والعلم به. قال عطاء بن أبي رباح: إِنَّ الشاب ليحدثني بحديث، فأستمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد (Al-Maqdisi, n.d., p. 118).

ومن حُسن الأدب أيضاً، أنه إذا أشكل على المستمع شيء من كلام محدّثه، فإن عليه أن يصبر حتى الانتهاء من الحديث، ثم يستفهم منه بأدب ولطف وتمهيدٍ حَسَنٍ للاستفهام، ولا يقطع عليه كلامه، فإنَّ ذلك محلُّ بأدب الاستماع، إلا إذا كان المجلس مجلس دراسة وتعلُّم، فإن له حينئذٍ شأنًا آخر، ويحسن فيه السؤال والمناقشة عند تمام الجملة أو المعنى الذي يشرحه المعلِّم، وينبغي أن تكون المناقشة فيه بأدب وكياسة (Abu Ghaddah, 1413, p. 65). قال الهيثم بن عدي: قالت الحكماء: من الأخلاق السيئة مغالبة الرجل على كلامه، والاعتراض فيه لقطع حديثه (Al-Maqdisi, n.d., p. 119).

ومن الأدب في هذا السياق كذلك، أنه إذا سُئل شخصٌ عن شيء، فإنه لا يحسن بغيره أن يبادر إلى الإجابة، بل ينبغي أن لا يقول شيئاً حتى يُسأل عنه، فإنَّ ذلك أَحَقُّ للأدب وأرفع للمقام. روي عن مجاهد أن لقمان قال لابنه: إياك إذا سُئل غيرك أن تكون أنتَ الجيب، كأنك أصبتَ غنيمة، أو ظفرتَ بعطيّة، فإنك إن فعلتَ ذلك، أُرِيتَ بالمسؤول، وعَنَّتْ السائل، ودَلَّتْ السفهاء على سفاهة حلمك، وسوء أدبك (Al-Maqdisi, n.d., p. 119).

4. الحث على خفض الصوت وعدم رفعه

من توجيهات القرآن الكريم في الحث على الأدب مع الآخرين، الدعوة إلى خفض الصوت وعدم رفعه. ويظهر هذا التوجيه جلياً فيما جاء على لسان لقمان الحكيم في وصاياه لابنه. قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. قال الألوسي: "والحكمة في غض الصوت المأمور به، أنه أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع، وفهمه"

وأدب خفض الصوت ينبغي مراعاته مع جميع المخاطبين، بغض النظر عن سنّهم ومكانتهم، غير أنه يزداد تأكيداً مع ذوي المكانة والشأن، وعلى هذا جاء التوجيه القرآني بخفض الصوت في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. وكذلك في حضرة الوالدين كما يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

ولعلنا أحوج ما نكون إلى الهدوء وعدم رفع الصوت في الحوار الذي يجري مع المعارضين والمخالفين، فإنه يحسن بالمحاور ألا يرفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع. فإن رفع الصوت لا يقوّي حجة صاحبه قط، وفي أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون، ضعيف الحجة، يستر عجزه بالصراخ، على عكس صاحب الصوت الهادئ الذي يعكس عقلاً متزناً وفكراً منظماً وحجة وموضوعية.

قال أبو عثمان محمد بن الشافعي: ما سمعتُ أبي ناظر أحداً قط فرفع صوته. وقد وُجد بالخبرة والتجربة، أنَّ الصوت المعتدل الهادئ المتأني من غير صراخ أو صياح، ومن غير إسرارٍ وإخفات، هو الأدخل إلى النفوس، والأنفذ إلى الأعماق، والأحفظ لجلال الكلمة ووقار المتكلم.

5. الحث على طلاقة الوجه وعدم العبوس

تُعَدُّ طلاقة الوجه لوناً من ألوان التحبب إلى الناس، ووسيلةً مؤثرةً من وسائل التقرب إلى الآخرين ومداراتهم. قال تعالى موجهاً رسوله الكريم إلى هذا السلوك: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي تواضع لهم وألن جانبك، وعامل أهل الإيمان بالإحسان والرفق والحنان. كما حذَّره سبحانه من الفظاظة والغلظة والقسوة والشدة باعتبارها من المنقِرات والمفرقات والمذهبات لأخوة الإيمان، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. ونهى القرآن الكريم صراحةً عن العبوس في وجه الشخص في أثناء الحديث معه، فقد عاتب سبحانه وتعالى رسوله الكريم لعبوسه في وجه أحد الصحابة. قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مِنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكِّي * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

والمطلع على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة، يجد بما لا يدع مجالاً للشك، أنه كان القدوة في حُسن الإخاء وجميل المعاشرة وطلاقة الوجه. فنظراً لأهمية هذا الخلق الرفيع، وما انطوى عليه من الآثار الجليلة في نفوس الناس، وكونه من أبرز أسباب تجمع القلوب، وإشاعة الألفة والمحبة والوداد بين الإخوان، وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يحث على طلاقة

الوجه في لقيا المؤمنين بعضهم بعضاً. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِقٍ». وقال: «تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة».

6. الحث على أداء التحية وردّها

الناظر في التوجيهات القرآنية التي تحثُّ على أدب المعاملة، يجد أنها تُحدد السِّمة التي يحرص المنهج القرآني دوماً على طبع المجتمع المسلم بها، ألا وهي الدعوة إلى التمسك بكلِّ وسيلة من شأنها أن تُوثِّق عُرى الأخوة وتعزِّز علاقات المودَّة بين أفراد المجتمع. ولعل إفشاء السلام والتحيَّة يُعدَّان في مقدمة تلك الوسائل التي تتجلَّى ثمارها في تصفية القلوب، وتوسيع دائرة التعارف بين الناس، وتوثيق الصِّلَة بين عباد الله، وهي ظاهرة يُدركها كل من يمارسها على صعيد المجتمع، ويتدبَّر نتائجها الإنسانية العجيبة. وقد اختار الله للمؤمنين أجمل معاني التحية ليتبادلوها فيما بينهم؛ وجعلها كلمة السلام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

وإذا كان الإسلام قد حثَّ على أداء التحية، فهو في الوقت نفسه قد حثَّ على ردّها. وإن كان الحث على أدائها قد جاء على وجه النَّدب، فإنَّ الحث على ردّها قد جاء على وجه الوجوب. قال تعالى: ﴿وَإِذَا خِيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. قال القرطبي: "أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سُنَّة مُرَعَّبٌ فيها، وردّه فريضة، لقوله تعالى: «فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» (Al-Qurthubi, p. 298).

7. النهي عن النجوى

النجوى: هي كلام السرّ الذي يكون بين اثنين أو أكثر، في تخافت وتهامس، بعيداً عن أسمع الناس. ويبين القرآن الكريم أنّ النجوى من صفات المنافقين الذين يجبنون دائماً عن التصريح بآرائهم ومعتقداتهم، ويعتادون على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. وفي النهي عن النجوى دليل على حرص الإسلام على مراعاة شعور الآخرين، إذ إنّ النجوى على هذه الصورة تؤدّي إلى سوء الظن بالآخرين وجرح مشاعرهم، لما قد يوحيه هذا التصرف لهم بأنهم ليسوا أهلاً للمشورة أو الصحبة.

8. النهي عن السخرية والتنازير بالألقاب

الناظر في أثر السخرية والتنازير بالألقاب على العلاقات الإنسانية، يجد أنّ سُخرية الإنسان من أخيه الإنسان معول هدام يسعى حثيثاً في تخريب العلاقات الإنسانية، وتمزيق الأخوة الإيمانية شرّ ممزّق، حيث يستعلي المرء بماله أو حسبه أو جاهه، مفاخرة ومباهاة وتحقيراً للآخرين، دون أن يدرك إمكانية تفوّقهم عليه بمواصفات لا تتوافر فيه، وهذه كلها أسلحة إبليس يضعها بين أيدي الخلائق ليفرّق بينهم، وليزرع العداوة والبغضاء في قلوبهم. ونهى الله تعالى المؤمنين عن السخرية من الآخرين مهما كانت صفاتهم وأوضاعهم، فلعلّ من يُسخر منه ويُنظر إليه نظرة احتقار واستخفاف، خيرٌ وأحبُّ إلى الله من الساخر الذي يعتقد في نفسه الكمال، ويرمي أخاه بالنقص والعيب.

ويستوقفنا في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فكيف يصحُّ هذا التعبير علماً بأن الإنسان يلزم غيره لا نفسه؟ إنّ في هذا التعبير القرآني تذكيراً للمؤمنين بأنهم وحدة متماسكة كنفس واحدة، فمن عاب غيره من المؤمنين، فكأنما يعيب نفسه. وفي هذا إشارة إلى

مستوى العلاقة التي يجب أن تسود بين المسلمين. إنها الأخوة التي تجعل من الحفاظ على حقوق الأخ حفاظاً على حقوق النفس.

فالقرآن الكريم يؤسس لقواعد اللياقة الاجتماعية، والأدب النفسي للتعامل في المجتمع الإنساني، فالمجتمع الفاضل من وجهة النظر القرآنية، لا بدّ وأن يقوم على أسس من الأدبيات الذوقية، التي ينبغي أن تحكم العلاقات السائدة بين أبنائه. إنه المجتمع الذي يترفع أبناؤه عن الهمز واللمز والسخرية، ويكون الأدب هو الخلق الذي يحكم تعاملهم فيما بينهم.

9. النهي عن الغيبة والنميمة

من الأمور التي وجّه القرآن الكريم لاجتنابها لمنافاتها أدب المعاملة، الغيبة والنميمة. والهدف من هذه التوجيهات، هو تنقية المجتمع الإسلامي من شوائب الخسّة والضّعة، وبناء العلاقات الاجتماعية على أسس المودّة والإخاء والنصيحة، وشغل الوقت بالإيجابيات النافعة، وصون الأمة عن السلبيات المبدّدة، فالمؤمن طاهر القلب أبداً عفيف اللسان، إذا رأى عورة لأخيه سترها، وإذا شاهد نقيصة أعرض عن نشرها، ونبهه سرّاً للإفلاع عنها، كما قال الشاعر: (Al-Syafii, Diwan, p. 65)

وَدِينُكَ مَوْفُورٌ وَعَرَضُكَ صَبِيرٌ	إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى
فَلِلنَّاسِ سَوَاءٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ	فَلَا يَنْطِقُ مِنْكَ اللِّسَانُ بِسَوَاءٍ
لِقَوْمٍ فَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعِينُ	وَعَيْنُكَ إِنْ أَبَدْتَ إِلَيْكَ مَسَاوِيًا
وَلَا تَلَقْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ	فَعَاشِرٌ بِإِنصَافٍ وَكُنْ مَتَوَدِّدًا

وذكر هذه الأشياء التي يُعاب بها الإنسان يُساعد على شيوعها، والله سبحانه لا يحب أن تشيع هذه السلبيات في حياة الناس. ولا يخفى ما ينشأ من آثار سيئة في العلاقات بين الناس نتيجة سماع هذه المعاييب، وما يثار من ضغائن وأحقاد عندما يُنقل هذا الكلام إلى

الطرف الآخر. وقد سعى الإسلام إلى إقامة سياجٍ حول حُرُمات الأشخاص وكراماتهم وحرّياتهم، وتعليم الناس كيف يطهرون مشاعرهم وضمائرهم في أسلوب متفردٍ عجيب.

الخاتمة:

يتبيّن من مجمل النتائج أنّ القرآن الكريم يربط كمال الأخلاق الإنسانية بحياة اجتماعية صالحة قائمة على العدل، والتعاون، والتناصر، والمحبة، ونكران الذات، ومبنية على عبادة الله تعالى والخضوع لربوبيّته. كما يؤصّل مبدأ حُسن الخُلُق كأصل جامع لأدب التعامل مع الآخرين، ويرى أن الإنسان بطبعه مدنيّ محتاج إلى غيره، ولا يمكنه تحقيق مصالحه منفردًا. وقد أكد القرآن أنّ صلة الرحم، وتكريم اليتيم، وإطعام المسكين، وأدب المعاملة، ليست مجرد سلوكيات اجتماعية، بل هي عبادات يتقرّب بها العبد إلى ربّه، وتُسهم في ترسيخ مفاهيم التكافل والوحدة الاجتماعية، وحلّ المشكلات، وإزالة الأحقاد والضغائن، تحقيقًا لروابط إنسانية متينة.

المراجع

- ‘Abd al-Shakur, Muhyiddin. (1976). “*Nahw Madkhal Islami li Tatwir wa Tanzim al-Alaqaat al-Insaniyyah*,” dalam al-I‘lam al-Islami wa al-‘Alaqaat al-Insaniyyah. Riyadh: 16 Oktober, cet. ke-2, 1405 H.
- Abu al-‘Ala, Muhammad. *‘Ilm al-Nafs al-Ijtima‘i*. Tanpa keterangan penerbit.
- Abu Ghuddah, ‘Abd al-Fattah. (1413 H). *Min Adab al-Islam*. Beirut: Dar al-Basha’ir al-Islamiyyah.
- Ahmad bin Hanbal, Abu ‘Abdillah. *Al-Musnad*. Kairo: Muassasah Qurtubah.
- Al-A‘rajy, Zuhayr. (1987). *Al-Akhlaq al-Qur’aniyyah*. Beirut: Dar al-Zahra’.
- Al-Absyihi, Shihabuddin Muhammad bin Ahmad. (1952). *Al-Mustathraf fi Kulli Fanin Mustazraf*. Kairo: Maktabah wa Matba‘ah Mustafa al-Babi al-Halabi wa Awladuh.

- Al-Alusi, Abu al-Fadl Mahmud. *Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Qur'an al-'Azim wa al-Sab' al-Mathani*. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi.
- Al-Bayhaqi, Abu Bakr Ahmad bin al-Husayn. (1994). *Sunan al-Bayhaqi al-Kubra*, ed. Muhammad 'Abd al-Qadir 'Atha. Makkah: Maktabah Dar al-Baz.
- Al-Bukhari, Abu 'Abdillah Muhammad bin Isma'il. (1987). *Al-Jami' al-Sahih*, ed. Mustafa al-Bugha. Beirut: Dar Ibn Kathir/al-Yamamah.
- Al-Dhahabi, Abu 'Abdillah Muhammad bin Ahmad. (1413 H). *Siyar A'lam al-Nubala'*. Beirut: Mu'assasah al-Risalah.
- Al-Fayruza'bi, Muhammad bin Ya'qub. (1983). *Al-Qamus al-Muhit*. Beirut: Dar al-Fikr.
- Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad. (1995). *Ihya' 'Ulum al-Din*. Kairo: Dar al-Hadith.
- Al-Ghazali, Muhammad. (1997). *Khuluq al-Muslim*. Kairo: Dar Nahdat Misr.
- Al-Hakim al-Naisaburi. (1990). *Al-Mustadrak 'ala al-Sahihayn*, ed. Mustafa 'Abd al-Qadir 'Atha. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Al-Hammadi, 'Ali. (2000). *Amsik 'Alayka Hadha*. Beirut: Dar Ibn Hazm.
- Al-Jurjani, 'Ali bin Muhammad. (1405 H). *Al-Ta'rifat*, ed. Ibrahim al-Abyari. Beirut: Dar al-Kitab al-'Arabi.
- Al-Khasyt, Muhammad 'Uthman. *Al-Masyakil al-Zawjiyyah wa Hululuha*. Kairo: Maktabah al-Qur'an.
- Al-Khatib al-Baghdadi, Abu Bakr Ahmad bin 'Ali. (1403 H). *Al-Jami' li Akhlaq al-Rawi wa Adab al-Sami'*, ed. Mahmud al-Tahan. Riyadh: Maktabah al-Ma'arif.
- Al-Khatib, 'Abd al-Karim. *Al-Tafsir al-Qur'ani li al-Qur'an*. Dar al-Fikr al-'Arabi.
- Al-Nasa'i, Abu 'Abd al-Rahman Ahmad bin Shu'ayb. (1991). *Al-Sunan al-Kubra*, ed. 'Abd al-Ghaffar al-Bandari & Sayyid Kasrawi Hasan. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Al-Nawawi, Yahya bin Sharaf. (1996). *Tahdhib al-Asma'*. Beirut: Dar al-Fikr, hlm. 84.
- Al-Qarafi, Ahmad bin Idris. *Al-Furuq*. Beirut: 'Alam al-Kutub.
- Al-Qayrawani, Abu Ishaq Ibrahim bin 'Ali al-Hushari. *Zahr al-Adab wa Thamar al-Albab*, ed. Muhammad Muhyi al-Din 'Abd al-Hamid. Beirut: Dar al-Jil.
- Al-Qurtubi, Abu 'Abdillah Muhammad bin Ahmad. (1372 H). *Al-Jami' li Ahkam al-Qur'an*, ed. Ahmad 'Abd al-'Alim al-Barduni. Kairo: Dar al-Sya'b.

- Al-Raghib al-Asfahani, Abu al-Qasim al-Husayn bin Muhammad. *Mufradat Alfaz al-Qur'an*, ed. Muhammad Sayyid Kilani. Beirut: Dar al-Ma'rifah.
- Al-Sabbagh, Muhammad Lutfi. (1988). *Nazarat fi al-Usrah al-Muslimah*. Beirut: al-Maktab al-Islami.
- Al-San'ani, 'Abd al-Razzaq bin Hammam. (1410 H). *Tafsir al-San'ani*, ed. Mustafa Muslim Muhammad. Riyadh: Maktabah al-Rushd.
- Al-Shihab al-Quda'i, Abu 'Abdillah Muhammad bin Salamah. (1986). *Musnad al-Shihab*, ed. Hamdi 'Abd al-Majid al-Salafi. Beirut: Mu'assasah al-Risalah.
- Al-Shirbasi, Ahmad. (1979). *Mawsu'ah Akhlaq al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Ra'id al-'Arabi.
- Al-Tabari, Abu Ja'far Muhammad bin Jarir. *Jami' al-Bayan*. Beirut: Dar al-Fikr.
- Al-Tirmidhi, Abu 'Isa Muhammad bin 'Isa. *Sunan al-Tirmidhi*, ed. Ahmad Muhammad Shakir dkk. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi.
- Al-Tumi, Muhammad. (1986). *Al-Mujtama' al-Insani fi al-Qur'an al-Karim*. Tunis: al-Dar al-Tunisiyyah li al-Nashr.
- Aqbiq, Ghazi Subhi. *Ayat Qur'aniyyah: Wamadhat min al-Qur'an al-Karim*. Damaskus: Dar al-Fikr.
- Carnegie, Dale. *Kayfa Taksib al-Asdiqa' wa Tu'athir fi al-Nas*. Kairo: Maktabah al-Khanji.
- Dimas, Muhammad. (1999). *Funun al-Hiwar*. Beirut: Dar Ibn Hazm.
- Fadlallah, Muhammad Husayn. (2001). *Al-Hiwar fi al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Malak.
- Ibn 'Abd al-Wahhab, Sulaiman bin 'Abdullah bin Muhammad. *Taysir al-'Aziz al-Hamid fi Sharh Kitab al-Tawhid*. Riyadh: Maktabah al-Riyadh al-Hadithah.
- Ibn al-Qayyim, Abu 'Abdillah Muhammad bin Abi Bakar Ayyub al-Zar'i. (1973). *Madarij al-Salikin*, ed. Muhammad Hamid al-Fiqi. Beirut: Dar al-Kitab al-'Arabi.
- Ibn Kathir, Abu al-Fida' Isma'il. (1401 H). *Tafsir al-Qur'an al-'Azim*. Beirut: Dar al-Fikr.
- Ibn Khaldun, 'Abd al-Rahman bin Muhammad. (1984). *Muqaddimah Ibn Khaldun*. Beirut: Dar al-Qalam.
- Ibn Khallikan, Abu al-'Abbas Ahmad bin Muhammad bin Abi Bakar. (1968). *Wafayat al-A'yan wa Anba' al-Zaman*. Beirut: Dar al-Thaqafah.

- Ibn Majah, Abu ‘Abdillah Muhammad bin Yazid al-Qazwini. *Sunan Ibn Majah*, ed. Muhammad Fu’ad ‘Abd al-Baqi. Beirut: Dar al-Fikr.
- Ibn Manzur, Muhammad bin Mukarram. *Lisan al-‘Arab*. Beirut: Dar Sadr.
- Ibn Sa’d, Abu ‘Abdillah Muhammad bin Sa’d al-Zuhri. *Al-Tabaqat al-Kubra*. Beirut: Dar Sadr.
- Lawand, Ramadan. *Min Qadhaya al-I‘lam fi al-Qur’an*. Matba‘ah al-Hadaf.
- Muhammad, ‘Abd al-Samad ‘Abdullah. (1998). *Khithab al-Anbiya’*. Kairo: Maktabah al-Zahra’.
- Mursi, Sayyid ‘Abd al-Hamid. *Al-‘Alaqat al-Insaniyyah*. Kairo: Maktabah Wahbah.
- Muslim bin al-Hajjaj al-Naisaburi. *Al-Jami‘ al-Sahih*, ed. Muhammad Fu’ad ‘Abd al-Baqi. Beirut: Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi.
- Qutb, Sayyid. (1985). *Fi Zilal al-Qur’an*. Beirut/Kairo: Dar al-Shuruq.
- Shaleh, Su‘ad Ibrahim. (1982). *Adhwa’ ‘ala Nizam al-Usrah fi al-Islam*. Jeddah: Tanpa penerbit.
- Ury, William. (1994). *Fan al-Tafawud*, terj. Nivin ‘Azab. Kairo: al-Dar al-‘Arabiyyah li al-Nashr wa al-Tawzi’.
- Usamah Ibn Munqidh. (1991). *Lubab al-Adab*, ed. Ahmad Muhammad Shakir. Beirut: Dar al-Jil.